

المتشابه في القرآن ومعرفة تأويله

يحيى جلال*

ملخص

تعددت آراء العلماء في تعريفهم للمتشابه الذي يقابل المحكم في القرآن الكريم، وكذلك تعددت الاعتبارات التي أثرت في نظرة العلماء للمتشابه. وجاءت هذه الدراسة لتسلط الضوء على هذه القضية ولتسهم في تقريب وجهات نظر العلماء باختيار المعنى الأشمل والأعم للمتشابه، المعنى الذي يتسع لآراء العلماء في المسألة ويتسع كذلك للأمثلة العملية التي ذكرها العلماء في كلامهم وتمثيلهم لمن ينطبق عليه اتباع المتشابه في القرآن ابتغاء الفتنة. ويؤكد البحث أيضاً أن مسألة معرفة تأويل المتشابه تتضح ويسهل التعامل معها إذا تم الوقوف على المعنى الأرجح للمتشابه.

الكلمات الدالة: المحكم، المتشابه، التأويل.

المقدمة

الْكِتَابِ وَأَخْرَجَ مُتَشَابِهَاتٍ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (آل عمران 7). ف "المتشابه" المراد في هذه الدراسة هو الذي يذكره العلماء على أنه قسيم المحكم، وهو الذي يستدل عليه العلماء بأية آل عمران التي جاء فيها أيضاً الإشارة إلى ذم اتباع المتشابه ابتغاء الفتنة والإشارة إلى موقف الراسخين في العلم من تأويله. فهذه الآية هي المحور في موضوع المتشابه والمحكم، ولذلك سيبقى البحث في إطار هذه الآية وما ذهب إليه العلماء في معنى المتشابه والعلم بتأويله. وقد كثرت كلام العلماء حول هذه الآية وحول المتشابه الذي يقابل المحكم في القرآن الكريم ما هو وما هي أمثله. ولما كان المحكم والمتشابه ليس من الأمور التوقيفية التي ورد الشرع ببيان تفسيرها ومعناها، بل كان من الأمور التوقيفية والاجتهادية كثرت فيهما الأقوال (عباس، 2010). ومن جزئيات هذا الموضوع المهمة قضية معرفة تأويل المتشابه. وهذا ما جاءت هذه الدراسة للبحث والنظر فيه. فالقضية الأساسية هنا هما: الأولى: ما هو المتشابه في القرآن، وكيف عرفه العلماء، وكيف اجتهدوا في تعيينه وتحديدته وعلى ماذا اعتمدوا في هذا التعيين. الثانية: هل المتشابه معلوم للعلماء، ولماذا ذهب بعض العلماء إلى أن المتشابه لا يعلمه إلا الله.

وموضوع المحكم والمتشابه من الموضوعات المطروحة في معظم كتب علوم القرآن القديمة والمعاصرة. وقد أفرد في دراسات مستقلة من قبل علماء معاصرين مثل دراسة الدكتور أحمد حسن فرحات (فرحات، 1998) وكتاب الدكتور إبراهيم نمارنة (نمارنة، 2003) وكتاب الدكتور حسيب شعيب

الحمد لله الذي أنزل القرآن وبسره، والصلاة والسلام على من بينه وبينه فسره. وبعد فإن القرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد للبشرية جميعاً، أنزله الله بلسان عربي مبين ليذبر الناس آياته وليتخذوه منهاجاً وحاكماً ودليلاً. لذلك كان القرآن ميسراً واضحاً بيّناً. وقد شهد القرآن لنفسه في مواضع عديدة بذلك (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ) (القمر 17). وكذلك اتفقت كلمات العلماء على ذلك في حديثهم عن رسالة القرآن وعن لغة القرآن. يقول الإمام الطبري "وذلك أن جميع ما أنزل الله عز وجل من أي القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم، فإنما أنزله عليه بياناً له ولأتمته وهدى للعالمين، وغير جائز أن يكون فيه ما لا حاجة بهم إليه، ولا أن يكون فيه ما بهم إليه الحاجة، ثم لا يكون لهم إلى علم تأويله سبيل" (الطبري، 2000). أضف إلى ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بين معاني القرآن كما بين حروفه، إذ إن بعثته عليه الصلاة والسلام تدور على ذلك، كما أخبر تعالى (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (النحل 44). إلا أن الدارس لبعض علوم القرآن يواجه تساؤلاً يقول "هل في القرآن ما لا يعلم معناه أحد إلا الله عز وجل؟" وهذا التساؤل يقود إلى مبحث مهم من مباحث علوم القرآن وهو مبحث المحكم والمتشابه الذي درس العلماء فيه قول الله عز وجل (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ

* قسم أصول الدين، كلية الشريعة، الجامعة الأردنية، الأردن. تاريخ استلام البحث 2015/05/12، وتاريخ قبوله 2015/07/30.

لكن العلماء وقفوا عند الآية السابعة في سورة آل عمران - وهي الآية الأهم في موضوع المحكم والمتشابه - وقسموا القرآن إلى محكم ومتشابه، أي إن بعض آيات القرآن محكمة وبعضها متشابه على معنى غير المعنى المراد بالإحكام والتشابه في آيتي هود والزمر. آية آل عمران تقول (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) (آل عمران 7). ومن هنا يتحدث العلماء عن المتشابه الذي يقابل المحكم تمييزاً عن المتشابه الذي هو القرآن كله كما جاء في آية الزمر، أو الإحكام والتشابه الاصطلاحي الخاص (الفتياني، 2010).

ولا ريب أن هناك اعتبارات في سياق آية آل عمران لها أهميتها في تحديد مفهوم المتشابه ومعرفة معناه. من هذه الاعتبارات موضع الوقف في الآية (عتر، 1993). وكذلك المراد بالتأويل من قوله تعالى في الآية (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ) (الرومي، 2003). وسنتعرض لهاتين القضيتين في هذا البحث بإذن الله تعالى.

وقد ذكر العلماء أقوالاً في تعيين المتشابه والمحكم اللذين ذكرا في آية آل عمران، ومن أهم هذه الآراء ما يأتي (السيوطي، 2008، الزركشي، 2006، ابن حجر، 2000):

- المحكم هو ما عرف المراد منه إما بالظهور وإما بالتأويل، والمتشابه هو ما استأثر الله بعلمه كقيام الساعة وخروج الدجال والحروف المقطعة في أوائل السور.
- المحكم هو ما وضح معناه والمتشابه نقيضه.
- المحكم ما لا يحتمل من التأويل إلا وجهاً واحداً والمتشابه ما احتتمل أوجهها.
- المحكم ما كان معقول المعنى والمتشابه بخلافه كأعداد الصلوات واختصاص الصيام برمضان.
- المحكم هو ما استقل بنفسه والمتشابه ما لا يستقل بنفسه إلا برده إلى غيره.
- المحكم ما تأويله تنزيهه والمتشابه ما لا يدرى إلا بالتأويل.
- المحكم ما لم تتكرر ألفاظه ومقابله المتشابه.
- المحكم الفرائض والوعد والوعيد والمتشابه القصص والأمثال.
- المتشابه ما لا يدرى إلا بالتأويل.
- المحكم هو الناسخ والحلال والحرام والحدود والفرائض وما يؤمن به ويعمل به والمتشابه هو المنسوخ والأمثال والأقسام وما يؤمن به ولا يعمل به.

(شعيب، 2003). لكن معظم هذه الدراسات جاءت في أطر متشابهة، في بعضها زيادة تفصيل وتمثيل في بعض المسائل واستدلال وتأييد لوجهة نظر على أخرى. وقد جاءت هذه الدراسة لتقدم وجهة نظر في التعامل مع تعريف المتشابه لعله يكون التعامل الأنسب والأسلم في مثل هذه القضية الاجتهادية التي لا يمكن حسم الخلاف فيها - كما يظهر في البحث - فقط من خلال ترجيح أحد الآراء في مسألة موضع الوقف في الآية السابعة من سورة آل عمران أو من خلال اختيار معنى لكلمة التأويل في الآية. كما أن هذه الدراسة أخذت بعين الاعتبار تمثيل العلماء لاتباع المتشابه من قبل أهل الزيغ والضلال، والذي من شأنه أن يسهم في فهم آية آل عمران وفهم موضوع المتشابه.

وقد جاء هذا البحث في مقدمة وستة مباحث وخاتمة على النحو الآتي:

المقدمة.
المبحث الأول: اختلاف العلماء في تعيين المحكم والمتشابه.

المبحث الثاني: تقسيم العلماء للمتشابه.
المبحث الثالث: المتشابه والأمور الغيبية.
المبحث الرابع: اختلاف العلماء في معنى "التأويل" في آية آل عمران.

المبحث الخامس: موضع الوقف في آية آل عمران.
المبحث السادس: تحديد الراجح في معنى المتشابه.
الخاتمة.

هذا وما كان في البحث من صواب فمن الله وحده، وما كان من خطأ فمن تقصير الإنسان. والله أسأل أن يهدينا سواء السبيل.

المبحث الأول: اختلاف العلماء في تعيين المحكم والمتشابه

من مباحث علوم القرآن المهمة التي تعرّض لها الدارسون مبحث المحكم والمتشابه في القرآن الكريم. ومما هو معلوم ومتفق عليه أن القرآن وصف نفسه بأنه محكم في قوله تعالى (كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) (هود 1)، وبأنه متشابه كما في آية (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا تَتَشَعَّرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ) (الزمر 23). لذلك فالقرآن كله محكم على معنى الإتيان وتام الفصاحة والبيان، وكله متشابه على معنى أنه يشبه بعضه بعضاً في الكمال والجمال ويصنق بعضه بعضاً (السيوطي، 2008، القطان، 2000). وهذا هو الإحكام والتشابه اللغوي العام كما يسميه العلماء (الفتياني، 2010).

أوائل السور والمحكم ما وراء ذلك، ولا قولهم: المحكم ما يعرفه الراسخون في العلم والمتشابه ما ينفرد الله تعالى بعلمه، ولا قولهم: المحكم الوعد والوعيد والحلال والحرام والمتشابه القصص والأمثال، وهذا أبعد" (الغزالي، 1993).
إذن قضية تعيين المحكم والمتشابه هي قضية اجتهادية اختلف فيها العلماء وهي كذلك قضية نسبية كما يظهر.

المبحث الثاني: تقسيم العلماء للمتشابه

ذهب كثير من العلماء إلى تقسيم المتشابه الذي يقابل المحكم إلى أقسام. ويظهر - والله أعلم - أن سبب هذا التقسيم هو أحد أمرين: الأول: لتسوية الوقف أو عدمه على لفظ الجلالة في آية آل عمران، الثاني: هو أن مفردة "المتشابه" يصعب حصر معناها في أمور غيبية لا يعلمها إلا الله وحده، فمثل هذا التخصيص الذي ذهب إليه بعض العلماء في تعريفهم للمتشابه لا دليل عليه كما يقول ابن عطية (ابن عطية، 2001).

يقول الخطابي: المتشابه على ضربين: أحدهما ما إذا رُد إلى المحكم واعتبر به عُرف معناه، والآخر ما لا سبيل إلى الوقف على حقيقته (السيوطي، 2008). وقريب من هذا ما ذكره البعض من أن التشابه الواقع في القرآن قسمان: أحدهما: حقيقي وهو ما لا يمكن أن يعلمه البشر كحقائق صفات الله، والثاني: نسبي وهو ما يكون مشتبهاً على بعض الناس دون بعض، فيكون معلوماً للراسخين في العلم دون غيرهم، وهذا النوع يُسأل عن استكشافه وبيانه لإمكان الوصول إليه (ابن عثيمين، 2004). ومن العلماء من قسّم المتشابه إلى ثلاثة أقسام هي: الأول: المتشابه الحقيقي: وهو الذي لا يعلمه أحد من البشر، ولا سبيل للوقوف عليه، كوقت قيام الساعة، وحقيقة الروح وغير ذلك من الغيبات التي اختص الله بعلمها. الثاني: المتشابه الإضافي: وهو ما اشتبه معناه لاحتياجه إلى مراعاة دليل آخر، فإذا قصص المجتهد أدلة الشريعة وجد فيها ما يبين معناه، كالألفاظ الغريبة، والأحكام التي تحتاج إلى استنباط وتدبر، وبعض مسائل الإعجاز العلمي. الثالث: المتشابه الخفي: وهو ضربٌ متردد بين الأمرين، يختص بمعرفته بعض الراسخين في العلم ويخفى على من دونهم، وهو الضرب المشار إليه في دعوة الرسول - صلى الله عليه وسلم - لابن عباس رضي الله عنهما (الرومي، 2003).

والإمام الراغب الأصفهاني له تفصيل في أقسام المتشابه تابعه عليه عدد من العلماء. يقول الراغب الأصفهاني في كتابه المفردات:

الآيات عند اعتبار بعضها ببعض ثلاثة أضرب: محكم

- المحكم هو ما فيه الحلال والحرام وما سوى ذلك منه متشابه يصدق بعضه بعضاً.
- المحكم هو ما لم ينسخ والمتشابه هو ما قد نسخ.
- المتشابهات هي الحروف المقطعة.
- المحكم هو ما يعمل به والمتشابه هو ما يؤمن به ولا يعمل به.

قال الزركشي - بعد أن ذكر عدة أقوال في معاني المحكم والمتشابه - "وكلها متقارب" (الزركشي، 2006). وهذا ربما يكون صحيحاً، لكن ما يُصعب الموضوع هنا ليس مجرد اختيار معنى للمتشابه، بل هو ضرورة أن يكون معنى المتشابه منسجماً مع موضع الوقف في الآية ومع معنى التأويل، وأن يكون منسجماً أيضاً مع التساؤلات التي تطرحها الآية من مثل: هل الراسخون في العلم يعلمون تأويل المتشابه؟ أو هل في القرآن ما لا يعلم معناه أحد إلا الله؟ وما هو هذا الذي نقرأه ولا نعلم تأويله؟

وبالنظر إلى آراء العلماء في معنى المحكم والمتشابه نُسجّل الملحوظات الآتية:

1- الناظر في أقوال العلماء في تحديد المحكم والمتشابه يرى اختلاف وجهات النظر ويرى أنه من الصعب وصف آية أو آيات بأنها متشابهات إلا على رأي من الآراء. فإن المتشابه عند عالم هو محكم عند آخر والعكس كذلك. أي لا ضابط دقيق للتمييز بينهما.

2- يظهر أيضاً أن من العلماء من اختار تعريفاً للمتشابه بناءً على ضرورة الوقف على لفظ الجلالة في قوله (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ) ومن ثم جاء تعريف المتشابه بناءً على هذا الاعتبار، أي إنه مما لا يعلمه إلا الله تعالى. حتى إن من العلماء من رجح بناءً على تمسكه بالوقف على لفظ الجلالة بأن المراد بآية آل عمران هم الذين جادلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر مدة هذه الأمة وليس في أمر عيسى عليه السلام، لأن أمر عيسى قد بيّنه الله لنبيه فهو معلوم لأمته، بخلاف أمر هذه الأمة فإن علمه خفي عن العباد (الطبري، 2000).

3- بالنظر إلى تعريفات العلماء للمتشابه نرى أنه على أكثر هذه التعريفات فإن المتشابه هو مما يُعلم تأويله وتفسيره للراسخين في العلم. أي لا وقف على لفظ الجلالة وتكون الواو قبل "الراسخون" عاطفة.

يقول الإمام الغزالي معقّباً على اختلاف العلماء في تحديد المحكم والمتشابه "وإذا لم يرد توقيف في بيانه [أي المتشابه] فينبغي أن يفسر بما يعرفه أهل اللغة ويناسب اللفظ من حيث الوضع، ولا يناسبه قولهم: المتشابه هي الحروف المقطعة في

الراغب أنه أراد من تقسيمه هذا بيان وجه صحة من وقف على لفظ الجلالة وبيان وجه من وصل، حيث يواصل ويقول "وإذ عرفت هذه الجملة علم أنّ الوقف على قوله (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ)، ووصله بقوله: (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) جائز، وأنّ لكل واحد منهما وجهاً حسبما دلّ عليه التفصيل المتقدم" (الراغب الأصفهاني، 2009). ومن هنا فإنّ هذه التقسيمات من العلماء للمتشابه إنما هي اجتهاد منهم لتسوية الوقف أو عدمه في آية آل عمران، أو لتوسيع مدلول المتشابه كما يسمح به أصل المعنى اللغوي للكلمة بدل قصره على معنى اصطلاحى واحد.

على أيّة حال نلاحظ من التقسيمات السابقة أن الجزء الأكبر من المتشابه ينطبق عليه أنه مما يعلمه العلماء الراسخون. ولا يبقى إلا الغيبيات التي ينطبق عليها أنه لا يمكن لأحد من البشر أن يعلمها. ونضيف هنا ونشير إلى أن طريقة الوقف في آية آل عمران تناسب أن يكون معنى المتشابه إما مقتصرًا على بعض الغيبيات التي لا يعلمها إلا الله، أو أن تكون الغيبيات غير مندرجة في مفهوم المتشابه. نقول هذا لأن مفهوم المتشابه في آية آل عمران لا يناسب أن يشمل أفاضاً معلومة للراسخين في العلم وأفاضاً غير معلومة في آن واحد، وإلا لم يستقيم الوقف على لفظ الجلالة ولم يستقيم عدم الوقف.

المبحث الثالث: المتشابه والأمور الغيبية

ذهب عددٌ من العلماء إلى أن المراد بالمتشابه في آية آل عمران هو الأمور الغيبية، وبما أن معرفة الغيب مختصة بالله عز وجل فإن الوقف عند هؤلاء العلماء لا بد أن يكون على لفظ الجلالة في قوله (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ).

وفي هذا الصدد نقول: لا شك أن هناك أموراً كثيرة قد استأثر الله بعلمها وأموراً كثيرة لا يعلم كيفيةها وحقيقتها إلا الله سبحانه وتعالى مثل قيام الساعة والجنة والنار وصفات الله عز وجل وغيرها. مثل هذه الأمور ذُكرت في القرآن وذُكرت في الأحاديث النبوية، كما أنها ذُكرت أيضاً في شعر العرب وكلامهم وفي كلام الناس عموماً. والحديث عن مثل هذا النوع من الغيبيات لا يجعل كلام الناس متشابهاً بمعنى لا يعلمون معانيه!

ثم إنّ القرآن يذكر عن الساعة (قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّئُهَا لَوَاقِحُهَا إِلَّا هُوَ) (الأعراف 187) وهذا من أوضح الواضحات، فلم يحدد لها وقتاً بذكر كلمة أو رمز تدل على وقتها وهذا الرمز يقرأه الناس ولا يفهمون تأويله. فتحديد وقت الساعة - وما شابه ذلك من أمور الغيب - لا يندرج تحت مدلولات الألفاظ (القيعي، 1996).

وكما هو معلوم فإن الغيب يشمل المستقبل والماضي.

على الإطلاق، ومتشابه على الإطلاق، ومحكم من وجه متشابه من وجه. فالمتشابه في الجملة ثلاثة أضرب: متشابه من جهة اللفظ فقط، ومتشابه من جهة المعنى فقط، ومتشابه من جهتهما. والمتشابه من جهة اللفظ ضربان: أحدهما يرجع إلى الألفاظ المفردة، وذلك إما من جهة غرابته نحو: الأب، ويزفون، وإما من جهة مشاركة في اللفظ كاليد والعين. والثاني يرجع إلى جملة الكلام المركب، وذلك ثلاثة أضرب: ضرب لاختصار الكلام نحو: (وَأَنْ خِفْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثًا) (النساء 3). وضرب لبسط الكلام نحو: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) (الشورى 11)، لأنه لو قيل: ليس مثله شيء كان أظهر للسامع. وضرب لنظم الكلام نحو: (أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَبِيماً) (الكهف 1-2)، تقديره: الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجاً. والمتشابه من جهة المعنى: أوصاف الله تعالى، وأوصاف يوم القيامة، فإنّ تلك الصفات لا تتصور لنا إذ كان لا يحصل في نفوسنا صورة ما لم نحسه، أو لم يكن من جنس ما نحسه. والمتشابه من جهة المعنى واللفظ جميعاً خمسة أضرب: الأول: من جهة الكميّة كالعموم والخصوص نحو: (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ) (التوبة 5). والثاني: من جهة الكيفيّة كالوجوب والنّدب، نحو: (فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ) (النساء 3). والثالث: من جهة الزّمان كالنّاسخ والمنسوخ، نحو: (اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ) (آل عمران 102). والرابع: من جهة المكان والأمور التي نزلت فيها، نحو: (وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا) (البقرة 189)، وقوله: (إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ) (التوبة 37)، فإنّ من لا يعرف عادتهم في الجاهليّة يتعدّر عليه معرفة تفسير هذه الآية. والخامس: من جهة الشّروط التي بها يصحّ الفعل، أو يفسد كشروط الصلاة والنكاح. ثمّ جميع المتشابه على ثلاثة أضرب: ضرب لا سبيل للوقوف عليه، كوقت الساعة، وخروج دابة الأرض، وكيفية الدابة ونحو ذلك. وضرب للإنسان سبيل إلى معرفته، كالألفاظ الغريبة والأحكام الغلقة. وضرب متردّد بين الأمرين يجوز أن يختصّ بمعرفة حقيقته بعض الراسخين في العلم، ويخفى على من دونهم، وهو الضرب المشار إليه بقوله عليه السلام في عليّ رضي الله عنه: اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل، وقوله لابن عباس مثل ذلك (الراغب الأصفهاني، 2009).

والراغب الأصفهاني كأنه أراد - من تقسيمه - أن يجمع بين آراء العلماء الذين تحدثوا عن معنى المتشابه، لذلك يقول الراغب بعد تفصيله لتلك الأنواع "وهذه الجملة إذا تصوّرت علم أنّ كلّ ما ذكره المفسرون في تفسير المتشابه لا يخرج عن هذه التقاسيم" (الراغب الأصفهاني، 2009). كذلك يتضح من كلام

سينتبهن لهم. فمثل هذا التمثيل ليس دقيقاً لمن يلتزم بالوقف على لفظ الجلالة، إذ لا يصلح أن يكون لا يعلم إلا الله في زمان وفي زمان آخر يعلمه الراسخون في العلم.

المبحث الرابع: اختلاف العلماء في معنى "التأويل" في آية آل عمران

مما يؤثر في فهم الآية السابعة من سورة آل عمران مفهوم كلمة التأويل في قوله تعالى (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ). وذهب بعض الباحثين إلى أن سبب الاختلاف في معرفة المتشابه أو عدم معرفته هو الاختلاف في المراد بالتأويل (الرومي، 2003). لكن هذا لا يقلل أهمية "ما هو المقصود بالمتشابه"، إذ إن قضية التأويل تتعلق بها. فالكلام هو عن تأويل المتشابه، والسؤال الأهم هو ما هو هذا المتشابه الذي يُطلب تأويله، ثم ماذا نقصد بالتأويل.

ذكر العلماء ثلاثة آراء في معنى التأويل في آية آل عمران وهي:

الأول: أن التأويل بمعنى التفسير. كما جاء في دعاء النبي عليه الصلاة والسلام لابن عباس "اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل".

الثاني: أن التأويل هو الحقيقة التي ينول إليها الخطاب. كقول الله عز وجل (يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ) (الأعراف 53). وعليه فإن الوقف يكون على لفظ الجلالة في قوله تعالى: (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ).

الثالث: أن التأويل هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به، وهذا المعنى اشتهر عند المتأخرين (الرومي، 2003، المجالي، 2014).

ومن العلماء من يقتصر في معنى التأويل على المعنى الأول والثاني فقط (ابن كثير، 1997، الفتاوي، 2010). من الواضح أنه على المعنيين الأول والثالث فإن الراسخين في العلم يعلمون التأويل. ومن ثم فإن الواو قبل (الراسخون) تكون للعطف. وعلى المعنى الثاني يكون الوقف على لفظ الجلالة. ويظهر عند بعض العلماء أن الكلام في معنى التأويل جاء لتسوية الوقف أو لتسوية عدمه (المجالي، 2014). وليس القصد هنا هو أن نجتمع بين الأقوال أو أن نُسوِّغَ لمن اختار الوقف ولمن اختار الوصل، بل نسعى لاختيار المعنى الأنسب والأرجح - إن شاء الله - في موضوع المتشابه ومعرفة تأويله. وإنه لمن المعلوم أن المؤمن لا يحيط بحقائق الأشياء كلها. والله عز وجل مدح المؤمنين لإيمانهم بالغيب، بل لا يكون المؤمن مؤمناً إلا إذا آمن بالغيب وهذا بالضرورة من غير إحاطة ولا معرفة بالأشياء على حقيقتها. فلا جديد ولا غريب

والقرآن تحدّث كثيراً عن الغيب الماضي مثل قصص السابقين وإنزال العذاب بهم وإهلاكهم - وما أكثر ما أشار القرآن إلى ذلك - وأمر بالاعتبار من تلك القصص. قال تعالى في سياق قصة نوح عليه السلام (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا) (هود 49) فمثل هذه الأحداث غائبة عنا ولا نعلم تحديد زمانها ولا حقائق ما حصل فيها، ومع هذا أمرنا القرآن بالنظر والاعتبار بها والاستفادة منها. إذن هي مدرّكة معلومة لنا، وإن غاب عنا كيفياتها وحقائقها. ولا يسع أحداً أن يقول عن مثل هذه الآيات ليست مما نعلم تأويلها. ولو جعلت آيات الغيب من المتشابهات لكان أكثر القرآن من المتشابه. وهذا غير مقبول. يقول الشاطبي تحت عنوان (قلة المتشابه) "فقله في المحكمات (هُنَّ أُمَّ الْكِتَابِ) يدل على أنها المعظم والجمهور، وأمّ الشيء معظمه وعامته، كما قالوا: أم الطريق بمعنى معظمه" (الشاطبي، 2011). ويقول الطبري في قوله تعالى (هُنَّ أُمَّ الْكِتَابِ) يعني بذلك: أنهن أصل الكتاب الذي فيه عماد الدين والفرائض والحدود، وسائر ما بالخلق إليه الحاجة من أمر دينهم، وما كلفوا من الفرائض في عاجلهم وأجلهم. وإنما سماهن "أمّ الكتاب"، لأنهن معظم الكتاب، وموضع مفرّج أهله عند الحاجة إليه (الطبري، 2000).

كما يذكر بعض العلماء في مباحث علوم القرآن ما أسماه بـ "المبهمات" وهو ما أبهم في القرآن من أسماء أشخاص أو أمكنة أو أزمنة ونحو ذلك (السيوطي، 2008) مثل قول الله عز وجل (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا) (البقرة 259). فلم يذكر القرآن اسم القرية ولا اسم الذي مرّ عليها ولا زمن ذلك الحدث. وكثير من هذه المبهمات لا سبيل إلى الوقوف على تعيينها، ومع هذا فلا يعدها العلماء من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله، لأن القرآن لم يتعرض لبيانها ولا يتوقف فهم الآية ومعرفة المراد مما أراده الله عز وجل على معرفة تفاصيل تلك المبهمات. وتبقى مثل هذه الآيات واضحة في دلالاتها ومفهومة لمن قرأها. كذلك يقال في آيات الغيب الماضي وآيات غيب المستقبل من حديث عن الساعة وغيرها. أيضاً في قضية الغيب أشير إلى أن من العلماء من يقول في تعريفه للمتشابه أنه ما استأثر الله بعلمه كقيام الساعة وخروج الدجال ويأجوج ومأجوج وما شابه ذلك. فهم يمثلون بالغيب بأمور مثل وقت خروج الدجال وخروج الدابة. ومما هو معلوم أن بعض أمور الغيب غير المعلومة تصبح معلومة عند من يشهد تحققها. فبعض الأمور الغيبية - اليوم - في حال وقوعها سيعلمها الناس وسيعلمون حقيقتها. لذلك من المتشابه - على هذا التعريف والتمثيل - ما سيعلمه الناس لاحقاً أي

إليه، كما مدح الله المؤمنين بالغيب.

- أخرج الحاكم عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حرف واحد، ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف: زجر وأمر، وحلال وحرام، ومحكم ومتشابه وأمثال، فأجلوا حلاله، وحرّموا حرامه، وافعلوا ما أمرتم به، وانتهوا عما نهيتم عنه، واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمحكمه وأمّنوا بمتشابهه، وقولوا: أمّا به كل من عند ربنا (الحاكم، 1990).

- أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال: التفسير على أربعة أوجه: وجهٌ تعرفه العربُ من كلامها، وتفسير لا يعذر أحدٌ بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالى ذكره (الطبري، 2000).

- أخرج الدارمي في مسنده عن سليمان بن يسار ما يفيد بأن رجلاً قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن فأرسل إليه عمر وعاقبه ونهاه عن ذلك (الدارمي، 2000).

- واستدل البعض بقولهم إن ورود المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله جاء لاختبار الإيمان، فإذا أذعن الراسخون في العلم وأمّنوا بالمتشابه، كان على غيرهم الإذعان من باب أولى. وفيه مدح للراسخين على إيمانهم بما لا يعلمون معناه، كإيمان المؤمنين بالغيب. وكذلك قال البعض بأن العقل مبتلى بالإيمان بالمتشابه، كابتلاء البدن بأداء العبادة فلا يتمرد العقل ويخضع مستسلماً ومعتزفاً بالقصور (أيوب، 2004).

الرأي الثاني: أن الواو للعطف

واستدلوا بأدلة منها ما يأتي (ابن قتيبة، 2002، الزركشي، 2006، السيوطي، 2008، الحسن، 1983):

- روي عن ابن عباس في قوله تعالى (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) أنه كان يقول "أنا ممن يعلم تأويله" (الطبري، 2000). وهذا يصدق دعاء النبي صلى الله عليه وسلم له "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل". ويروى عن مجاهد أنه قال (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) قال: يعلمون تأويله (الطبري، 2000).

- أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك قال: الراسخون في العلم يعلمون تأويله ولو لم يعلموا تأويله لم يعلموا ناسخه من منسوخه ولا حلاله من حرامه ولا محكمه من متشابهه (السيوطي، 2008).

- قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم الأصح هو أن الراسخين في العلم يعلمون تأويل المتشابه لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته (النووي، 1999). ولأن اشتغال القرآن على شيء غير مفهوم يخرج عن كونه بياناً للناس، وهو خلاف ما أخبر الله به

في أنه لا يعلم حقائق الأشياء إلا الله سبحانه وتعالى. والمؤمن يعرف الله عز وجل ويؤمن به ويعرف الجنة والنار والحساب وغيرها دون أن يعرف حقيقتها ودون أن يراها. وفهم القرآن لا يتوقف على معرفة حقائق الأشياء وكيفياتها. فالإنسان لا يحيط علماً بحقائق أشياء كثيرة في الماضي والمستقبل وهذا لا يجعله غير عالم بها. وكأن سياق الآية لا يشير إلى أن المراد بالتأويل هو الحقيقة التي يتوّل إليها الخطاب. بل بما أن أهل الزيغ يبتغون تأويله فهو والله أعلم مما يدرك معرفته وتأويله. ولذلك أقرب المعاني - والله أعلم - لكلمة التأويل في هذا السياق هو التفسير.

المبحث الخامس: موضع الوقف في آية آل عمران

من المسائل المتعلقة بالمتشابه التي أفردتها العلماء بنقاش واستدلال مسألة موضع الوقف في آية آل عمران هل هو على لفظ الجلالة في قوله (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ) ومن ثم فإن الواو بعد لفظ الجلالة تكون للاستئناف، أم إن الواو بعد لفظ الجلالة للعطف وإذن لا يوقف على لفظ الجلالة في هذا الموضع. وسنعرض هنا آراء العلماء في الوقف والأدلة التي استدل بها أصحاب كل رأي.

الرأي الأول: أن الواو للاستئناف

من أهم ما استدلل به العلماء القائلون بضرورة الوقف على لفظ الجلالة بناءً على أن تأويل المتشابه لا يعلمه إلا الله ما يأتي (ابن حجر، 2000، السيوطي، 2008، القيعي، 1996، أيوب، 2004):

- ما أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَى قَوْلِهِ: أُولُوا الْأَلْبَابِ قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمي الله، فاحذرهم" (البخاري، 2011، مسلم، 2010).

- ما ورد في بعض الروايات أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: "إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً، أو لتضربوا بعضه ببعض، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما تشابه فأمنوا به" (الألباني، 1985، ابن كثير، 1997).

- استدللوا بقراءات شاذة منسوبة إلى ابن مسعود وابن عباس مثل قراءة "وإن تأويله إلا عند الله، والراسخون في العلم يقولون أمّا به" وقراءة "وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون في العلم" (البغوي، 1999، أبو حيان، 1999).

- أن الآية دلت على ذم مبتغي المتشابه ووصفهم بالزيغ وابتغاء الفتنة، وعلى مدح الذين فوضوا العلم إلى الله وسلموا

فاقتضى ذلك بناء المتشابه عليها ورده إليها، ثم أكد ذلك بقوله (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله)، فوصف متبع المتشابه من غير حمله له على معنى المحكم بالزيغ في قلبه" (الجصاص، 1985). كذلك الدعوة للإيمان بالمتشابه لا تعني بالضرورة عدم إمكان معرفة معناه بل جاء في بعض الروايات "فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه" (ابن كثير، 1997). كما أن كلمة (فيتبعون ما تشابه) تشعر بأن المعاني من الممكن معرفتها والوصول إليها.

- القراءات الشاذة ، لا تكفي دليلاً، فثبوتها وصحة نسبتها وسلامة الاحتجاج بالشاذ يحتاج إلى بحث موسع ليس هذا مكان تفصيله، وخاصة مع وجود قراءاتٍ أخرى يُستشهد بها على أن الواو للعطف (الطبري، 2000). أيضاً على فرض صحة الاحتجاج بهذه القراءات الشاذة فإن من الممكن أن يقال إن الآية تخبر عن الراسخين في العلم بأنهم يقولون آمناً به، ولا يقتضي هذا جهل الراسخين بالتأويل فالآية لم تتعرض إلى علمهم ولا إلى عدم علمهم (الحسن، 1983).

- إن كان ورد في كلام ابن عباس أن تفسير القرآن على أربعة أوجه منها وجه لا يعلمه إلا الله (الطبري، 2000)، فنقول إنه لا ريب أن هناك في القرآن مبهمات وحقائق لا يمكن الوصول إلى معرفة حقيقتها لأحد من البشر إلا بإطلاع الله عز وجل له. لكن اعتبار مثل هذه الأمور هو الآيات المتشابهات وتقابلها الآيات المحكمات أمرٌ غير مسلم به.

- نهي عمر بن الخطاب ومعاقبته لمن سأل وتتبع المتشابه يُحمل على النهي عن اتباع المنهج الخاطئ في التعامل مع الآيات المتشابهات والنهي عن التعسف والتكلف في السؤال. وهكذا يظهر إيمان المؤمن وإدعائه وتسليمه لما جاء في القرآن الكريم بقبول كل ما جاء فيه وليس بالتشكيك ببعضه.

- ما ذكر من أن ورود المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله جاء لاختبار الإيمان، وبأن العقل مبتلى بالإيمان بالمتشابه، كابتلاء البدن بأداء العبادة فلا يتمرد العقل ويخضع مستسلماً، فهذا يرده كلام الإمام النووي وابن قتيبة السابق بأن القرآن نزل لينفع العباد وأن الله عز وجل يخاطب عباده بما لهم سبيل لفهمه ومعرفته. وعدم إدراك الغيبات لا تعني عدم فهم كتاب الله عز وجل. وقد ذكرنا من قبل أن ما استأثر الله بعلمه لا يصلح أن يكون تفسيراً للمتشابهات.

تشير أيضاً في نهاية هذا المبحث إلى أن من أسباب الاختلاف في آية آل عمران هو الخلط بين المقدمة والنتيجة، فموضع الوقف نتيجة ومعناها مقدمة، ومن التزم وفقاً محدداً ثم التمس له معنى لائفاً فقد عكس القضية. فالأصل وكما هو

(الحسن، 1983). واختار ابن قتيبة أن تكون الواو عاطفة وقال "ولسنا ممن يزعم أن المتشابه في القرآن لا يعلمه الراسخون في العلم، وهذا غلط من متأوليهِ على اللغة والمعنى، ولم ينزل الله شيئاً من القرآن إلا لينفع به عباده ويدل به على معنى أرادته" (ابن قتيبة، 2002). ويتساءل ابن قتيبة كذلك ويقول "وهل لأحد أن يقول: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يعرف المتشابه؟! وإذا جاز أن يعرفه مع قوله تعالى: (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ) جاز أن يعرفه الربانيون من صحابته فقد علم علياً التفسير، ودعا لابن عباس فقال: اللهم علمه التأويل وفقهه في الدين" (ابن قتيبة، 2002). ثم يواصل ابن قتيبة ويقول "فإننا لم نر المفسرين توفقوا عن شيء من القرآن، وقالوا: هذا متشابه لا يعلمه إلا الله، بل أمروه على التفسير، حتى فسروا الحروف المقطعة في أوائل السور" (ابن قتيبة، 2002). ونقل عن بعض العلماء قولهم إن كل القرآن يجب أن يكون معلوماً، وإلا أدى ذلك إلى إبطال الانتفاع.

- أن ذكر الراسخين في العلم في هذه الآية كان لمزية عن سائر الناس، وهذه المزية لا تكون إلا إذا كان لهم علم بالمتشابه (الحسن، 1983). وإذا لم يعلم الراسخون، تساوا مع غيرهم. وإذا لم يعلم المتشابه أحد كان الخطاب بالمتشابه فوق مستوى البشر (القيعي، 1996).

- أن الأصل في الواو هو العطف، ولا تحمل على الابتداء إلا بدلالة، ولا دلالة هنا توجب صرفها عن حقيقتها، فوجب استعمالها بمعنى العطف (الجصاص، 1985).

نلاحظ من أدلة الفريقين تشابهاً في طرق الاستدلال، فبعض أدلتهم مبني على روايات وبعضها على اللغة وبعضها على فهم واستنباطات عامة. لكن الباحث - ليس فقط من خلال الأدلة التي استدل بها أصحاب الرأي الثاني والتي هي أوضح وأقرب في الدلالة على ما ذهبوا إليه، بل أيضاً من خلال الإحاطة بالموضوع من جوانب متعددة كما يظهر في البحث - يميل إلى الرأي الثاني وهو أن تكون الواو عاطفة.

لذلك نجيب عن أدلة أصحاب الرأي الأول بما يأتي:

- الروايات التي فيها ذم لاتباع المتشابه لا تشير إلى أن المتشابه لا يعلمه إلا الله، بل تشير - والله أعلم - إلى ضرورة اتباع الطريقة الصحيحة في التعامل مع الآيات المتشابهات. فالآية تشير إلى أن الزائغين يتبعون المتشابه، أي ويتركون المحكم. وهذا هو الفعل المذموم الناشئ عن هوى وليس عن إيمان بكل ما جاء في القرآن الكريم. فالآية توجب - كما يقول الجصاص - "رد المتشابه إلى المحكم وحمله على معناه دون حمله على ما يخالفه لقوله تعالى في صفة المحكمات (هن أم الكتاب)، والأم هي التي منها ابتدأه وإليها مرجعه، فسمّاها أم"

(أَفْتُوْمُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضِ) (البقرة 85). فأهل الزيف يستعملون بعض الآيات التي تخدم أهواءهم وأغراضهم ويبترونها عن سياقها وعن الموضوعات المرتبطة بها والمماثلة لها ويستغلون تشابه بعض الآيات ليستعملوها في غير معناها الصحيح ولغير ما نزلت لأجله، ويتركون أخذ محكم الكتاب ومعظم آياته وتشريعاته. يقول الجرمي "أما أهل الزيف والضلال فهم ينتبعون متشابه القرآن، ويغضون الطرف عن محكمه. وبذا يصرفون كلام الحق عن وجهته ومقصده، إثباتا لمعتقداتهم وتحقيقا لأهوائهم" (الجرمي، 2001). ولذلك جاء في آية آل عمران المتشابه في مقابل المحكم وفي هذا إشارة - كما ذكر بعض العلماء - إلى أن يُرد المتشابه إلى المحكم ليفسره ويبينه (الجصاص، 1985، عتر، 1993). ويقول ابن عثيمين "فالزائغون يتخذون من هذه الآيات المتشابهات وسيلة للطعن في كتاب الله، وفتنة للناس عنه، وتأويله لغير ما أراد الله تعالى به، فيضلون ويضلون. وأما الراسخون في العلم فيؤمنون بأن ما جاء في كتاب الله تعالى فهو حق وليس فيه اختلاف ولا تناقض لأنه من عند الله، وما جاء مشتبه رده إلى المحكم ليكون الجميع محكماً" (ابن عثيمين، 2004).

يقول أبو البقاء "أصل المتشابه، أن يكون بين اثنين، فإذا اجتمعت الأشياء المتشابهة كان كل منها مشابها للآخر فصَحَّ وصفها بأنها متشابهة، وليس المراد أن الآية وحدها متشابهة في نفسها. وحاصله أنه ليس من شرط صحة الوصف في الجمع صحة انبساط مفردات الأوصاف على مفردات الموصوفات، وإن كان الأصل ذلك" (ابن حجر، 2000). وذكر الطبري لطيفة لغوية في آية آل عمران فقال "وَوَحَّدَ (أم الكتاب) ولم يجمع فيقول (هن أمهات الكتاب)، وقد قال (هُنَّ) لأنه أراد جميع الآيات المحكمات (أم الكتاب)، لا أن كل آية منهن (أم الكتاب). ولو كان معنى ذلك أن كل آية منهن (أم الكتاب) لكان لا شك قد قيل (هن أمهات الكتاب)" (الطبري، 2000). وفي كلام أبي البقاء الذي نقله ابن حجر وكلام الطبري إشارتان لطيفتان إلى معنى أن القرآن كله محكم وأنه كله متشابه. وواضح أيضاً الإشارة إلى ضرورة أخذ آيات القرآن جميعها حتى يكون الإنسان على بينة وبصيرة في أمور دينه، وإلا كان في تجزئة القرآن وتفكيكه واتباع بعضه الزيف والضلال.

ومما هو معلوم ومشاهد أن كثيراً من أهل الزيف يتمسكون بألفاظ معدودة من القرآن ويبنون عليها مذاهبهم. ونلاحظ أيضاً أن كثيراً من ردود العلماء على أهل الزيف يكون بذكر آيات أخرى في القرآن نفسه لو تم اعتبارها لما كان هناك حجة لهؤلاء الزائغين في الاستدلال على باطلهم. يذكر ابن حجر في

معلوم أن الوقف يتبع المعنى وليس العكس. وهذا واضح من كلام العلماء عموماً ومن كتب الوقف خصوصاً (الأنباري، 1971، الداني، 2001). ففضية الوقف لا تحسم مسألة المتشابه ومعرفة تأويله. يقول الغزالي "فإن قيل: قوله تعالى (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم) (آل عمران 7) الواو للعطف أم الأولى الوقف على الله؟ قلنا كل واحد محتمل، فإن كان المراد به وقت القيامة فالوقف أولى وإلا فالعطف، إذ الظاهر أن الله تعالى لا يخاطب العرب بما لا سبيل إلى معرفته لأحد من الخلق" (الغزالي، 1993). وبقريب من هذا الكلام قال الراغب الأصفهاني بعد تفصيله في أقسام المتشابه إذ يقول "وإذ عرفت هذه الجملة علم أن الوقف على قوله (وما يعلم تأويله إلا الله)، ووصله بقوله (والراسخون في العلم) جائز، وأن لكل واحد منهما وجهاً" (الراغب الأصفهاني، 2009). فالتمسك بالوقف على لفظ الجلالة ثم تأويل الآية بناء على ذلك ليس هو الصواب، بل الصواب أن تُختار المعاني الأنسب والأصح ثم يُحدَّد الوقف الأنسب بناءً على المعنى الأنسب.

المبحث السادس: تحديد الراجح في معنى المتشابه

مرّ معنا اختلاف العلماء في تعيين المحكم والمتشابه واجتهادهم في ذلك والاستدلالات والاعتبارات التي اعتمدوا عليها فيما ذهبوا إليه من آراء. ورأينا تنوع وتداخل الآراء في معنى المتشابه ونسبية التشابه وصعوبة الترجيح في بعض المسائل وكيف قسّم العلماء المتشابه إلى أقسام وأدخلوا فيه من الأمور الغيبية التي لا يحيط أحد بعلمها إلا الله عز وجل. وكما أشار الإمام الغزالي فإنه "إذا لم يرد توقيف في بيان معنى المتشابه فينبغي أن يفسر بما يعرفه أهل اللغة ويناسب اللفظ من حيث الوضع" (الغزالي، 1993).

إذا كان الأمر كذلك فإننا نتساءل هنا لم لا يكون معنى التشابه في آية آل عمران غير مختلف عن المعنى اللغوي العام للتشابه؟ بدلاً من الخوض في تحديد معاني اصطلاحية للمتشابه وتقسيمات لا دليل عليها. وتكون آية آل عمران جاءت لتقول إن بعض آيات القرآن قد لا يمكن فهمها الفهم الصحيح دون اعتبار الآيات الأخرى، من غير تعيين لنوع محدد من الآيات. فالآية تؤكد أن القرآن ينبغي أن يُضم بعضه إلى بعض حتى يُفهم الفهم الصحيح ولا يشته على قارئه. فإن أي آية من الممكن أن تشته على القارئ إذا لم يُحكَم معناها مع آيات القرآن الأخرى. والآية تشير إلى أن الذين في قلوبهم زيف ينتبعون بعض آيات القرآن التي تخدم أهواءهم ولا يأخذون القرآن كاملاً، كما قال سبحانه وتعالى في خطابه لبني إسرائيل

أهل الزيغ. ومعلوم أيضا أن كثيرا من العلماء كتبوا ودافعوا عن القرآن ضد المغرضين وكان هؤلاء المغرضون يستعملون آيات متشابهات لإثارة شبهات حول القرآن. فَعُلْم من الواقع أن كثيرا من أهل الزيغ ضلوا وأضلوا باتباع متشابهات.

وهذا التشابه الذي يتبعه الزائغون لا يمكن أن يحدّد في آيات أو موضوعات بعينها. فأهل الزيغ كثر وهم على اختلاف أفكارهم يدعون وصلاً بالقرآن، والشيء المشترك بينهم هو أنهم لا يأخذون القرآن أخذا كاملا شاملا. فأَي آية في القرآن لو اجتزأها صاحب زيغ واتبعها ولبس على الناس وفتنهم بها سواء كانت من آيات صفات الله عز وجل أو آيات الغيب أو آيات الولاية أو القتال أو غيرها فإن هذا يكون من اتباع المتشابه وترك المحكم أي عدم اتخاذ آيات القرآن كلها منهجا ومذهبا. والذي يمنع من الضلال هو الرسوخ في الإيمان والعلم وسلامة القلب من الزيغ والانحراف.

حتى ينطبق مفهوم المتشابه على أي موضع في القرآن فلا بد من بقائه في إطار معناه اللغوي العام. وهذا أسلم من الخوض في تعيينات للمتشابه لا دليل عليها ومن تقسيمات لا حاجة لها، وفي الوقت نفسه فهذا الإطلاق أقرب من حيث اللغة، وأشمل للآراء في الموضوع، وأكثر انطباقاً على الواقع العملي. وبقي أن نشير إلى أنه إذا كان مفهوم المتشابه كذلك، فإنه لمن المعلوم أن معانيه الصحيحة المرادة لا تخفى على الراسخين في العلم.

الخاتمة:

الحمد لله على توفيقه والصلاة والسلام على نبيّه ورسوله، وبعد فإني أجمل أبرز ما توصل إليه البحث من نتائج فيما يأتي:

- مفهوم المحكم والمتشابه من المفاهيم التي خاض فيها العلماء كثيرا واختلفوا في تعريفهما على أقوال عديدة. والآية الأهم في هذا الموضوع هي الآية السابعة من سورة آل عمران.
- هناك اعتبارات أثرت في تعريف العلماء لمفهوم المتشابه. من هذه الاعتبارات موضع الوقف في آية آل عمران. ومن العلماء من ذهب في تعريف المتشابه إلى أنه الأمور الغيبية لأنه بناءً على الوقف على لفظ الجلالة فإن الله وحده هو الذي يعلم المتشابه. لكن المعنى هو الأصل، وموضع الوقف يكون تبعاً ونتيجة لذلك، ولا تقدم النتيجة على المقدمة.
- الخلاف والاستدلال والترجيح في مسألة موضع الوقف في آية آل عمران وفي معنى كلمة التأويل في الآية لا يحسم موضوع المتشابه وتعريفه وهل لا يعلمه إلا الله أم يعلمه الراسخون في العلم أيضا. بل في الغالب مثل هذه الاستدلالات

اتباع المتشابه أنه أول ما ظهر في الإسلام كان من الخوارج، وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه فسّر بهم آية آل عمران (ابن حجر، 2000). ومعلوم أن مقولة الخوارج كانت (إن الحكم إلا لله) فهم أخذوا بعض آية من القرآن وشبهوا على الناس بها وأرادوا بها الباطل كما قال عنهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه. ويقول الطبري في تفسيره لمن يتبعون المتشابهات نقلا عن علماء "وقال آخرون: بل عنى الله عز وجل بذلك كل مبتدع في دينه بدعة مخالفة لما ابتعث به رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم، بتأويل يتأوله من بعض آي القرآن المحتملة التأويلات، وإن كان الله قد أحكم بيان ذلك، إما في كتابه، وإما على لسان رسوله" (الطبري، 2000). وأيضاً ينقل الطبري عن قتادة أنه "كان إذا قرأ هذه الآية (فأما الذين في قلوبهم زيغ) قال: إن لم يكونوا الحرورية والسبئية، فلا أدري من هم!" (الطبري، 2000). كذلك يذكر ابن كثير في تفسيره وهو يرد على بعض الفرق الضالة "لا كما يقول القدرية ومن حذا حذوهم... ويحتجون على بدعتهم بمتشابه من القرآن ويتركون ما يكون فيه صريحا" (ابن كثير، 1997).

ويروي القرطبي في تفسيره عن أبي غالب أنه قال: كنت أمشي مع أبي أمامة وهو على حمار له، حتى إذا انتهى إلى درج مسجد دمشق فإذا رؤوس منصوبة، فقال: ما هذه الرؤوس؟ قيل: هذه رؤوس خوارج يُجاء بهم من العراق فقال أبو أمامة: كلاب النار كلاب النار! شرّ قتلى تحت ظل السماء، طوبى لمن قتلهم وقتلوه - يقولها ثلاثاً - ثم بكى. فقلت: ما يبكيك يا أبا أمامة؟ قال: رحمة لهم، إنهم كانوا من أهل الإسلام فخرجوا منه، ثم قرأ (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات...) إلى آخر الآيات. ثم قرأ (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات) (آل عمران 105). فقلت: يا أبا أمامة، هم هؤلاء؟ قال نعم. قلت: أشيء تقوله برأيك أم شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: إني إذا لجريء إني إذ لجريء! بل سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرّة ولا مرّتين ولا ثلاث ولا أربع ولا خمس ولا ست ولا سبع، ووضع أصبعيه في أذنيه، قال: وآلا فصمّتا - قالها ثلاثاً - ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "تفرقت بنو إسرائيل على إحدى وسبعين فرقة واحدة في الجنة وسائرهم في النار ولتزيدن عليهم هذه الأمة واحدة، واحدة في الجنة وسائرهم في النار" (القرطبي، 2006).

إذن لقد جاء في الروايات وفي كلام العلماء أمثلة للمتشابه واتباعه. وهذا تمثيل وتطبيق عملي لآية آل عمران، من الصعب إغفاله واعتباره لا علاقة له باتباع المتشابه من قبل

تختلف باختلاف أصحاب الزيف والأهواء. فمفهوم التشابه من الممكن أن ينطبق على أية آية في القرآن الكريم إذا لبس على الناس بها صاحبُ زيف ولم يُحكَم معناها المراد بردها إلى كليات ومحكمات القرآن. وهذا - كما تبين من خلال البحث- أقرب إلى تصوّر العلماء لمفهوم المتشابه، ويؤيده الأمثلة الواقعية لأصحاب الزيف والأهواء واستدلالاتهم ببعض القرآن. وإذا كان مفهوم المتشابه كذلك فإن الراسخين في العلم الذين ليس في قلوبهم زيف يعلمون التفسير السليم للمتشابهات.

جاءت لتسويغ آراء الآخذين بالوقف أو آراء الآخذين بالوصل. - لا دليل على قصر المتشابه على الأمور الغيبية إلا الالتزام بالوقف على لفظ الجلالة في آية آل عمران. لكن الصواب هو أن يتبع الوقفُ المعنى وليس العكس. - لأنه لم يرد توقيف في معنى المتشابه فإن الأصل أن يكون على معناه الأقرب من حيث اللغة. وهذا يجعل تعريف المتشابه في آية آل عمران هو التعريف اللغوي الذي يتناسب مع وضع اللغة فهو من الشبه والتشابه والتماثل والتشارك، دون الخوض في تعريفات اصطلاحية للمتشابه لا دليل عليها. وكذلك دون تعيين للآيات المتشابهات، فإنها

المصادر والمراجع

- الجصاص، أ. (1985). أحكام القرآن، تحقيق محمد القمحاوي، بيروت: دار إحياء التراث العربي. ص284/2. ص282/2. ص282/2.
- الحاكم، م. (1990). المستدرک على الصحيحين، تحقيق مصطفى عطا، بيروت: دار الكتب العلمية. ص739/1.
- الحسن، م. (1983). المنار في علوم القرآن، عمان: مطبعة الشرق. ص117-118. ص118. ص118.
- الدارمي، ع. (2000). مسند الدارمي، تحقيق حسين الداراني، السعودية: دار المغني. ص252/1.
- الداني، ع. (2001). المكتفى في الوقف والابتداء، تحقيق محي الدين رمضان، الأردن: دار عمار. ص37/1-38.
- الراغب الأصفهاني، ح. (2009). مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوان داوودي، ط4، دمشق: دار القلم. ص443-445. ص444. ص445.
- الرومي، ف. (2003). دراسات في علوم القرآن، ط12. ص399. ص390. ص399. ص402-399.
- الزرقاني، م. مناهل العرفان، ط3، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.
- الزركشي، ب. (2006). البرهان في علوم القرآن، تحقيق أبي الفضل الدمياطي، مصر. ص370-371. ص371. ص273-372.
- السيوطي، ع. (2008). الإتيقان في علوم القرآن، اعتنى به مصطفى شيخ، بيروت: مؤسسة الرسالة. ص425. ص425-426. ص427-426. ص427. ص429. ص429. ص698-710. ص426-427. ص427. ص429.
- الشاطبي، إ. (2011). الموافقات، تحقيق محمد مرايبي، دمشق: مؤسسة الرسالة ناشرون. ص74/3.
- شعيب، ح. (2003). المحكم والمتشابه في القرآن، بيروت: دار الكتاب العربي.
- الطبري، م. (2000). جامع البيان عن تأويل القرآن، تحقيق أحمد شاکر، مؤسسة الرسالة. ص180/6. ص196/6. ص170/6.

- ابن حجر، أ. (2000). فتح الباري شرح صحيح البخاري، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، الرياض: دار السلام. ص264/8-264. ص265. ص264/8-266. ص265/8. ص266/8.
- ابن عثيمين، م. (2004). شرح أصول في التفسير، غناية وتعليق أيمن الدمشقي وصبحي رمضان، القاهرة: مكتبة السنة. ص136-137. ص130.
- ابن عطية، ع. (2001). المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام محمد، بيروت: دار الكتب العلمية. ص404/1.
- ابن قتيبة، ع. (2002). تأويل مشكل القرآن، تعليق إبراهيم شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية. ص66-67. ص66. ص66. ص67.
- ابن كثير، إ. (1997). تفسير القرآن العظيم، ط9، بيروت: دار المعرفة. ص355/1. ص354/1. ص355/1. ص33/1.
- أبو حيان، م. (1999). البحر المحيط، تحقيق صدقي جميل، بيروت: دار الفكر. ص29/3.
- الألباني، م. (1985). سلسلة الأحاديث الصحيحة، الأردن: المكتبة الإسلامية. ص28/4.
- الأنباري، م. (1971). إيضاح الوقف والابتداء، تحقيق محي الدين رمضان، دمشق: مطبوعات مجمع اللغة العربية. ص565/2-567.
- أيوب، ح. (2004). الحديث في علوم القرآن والحديث، ط2، الإسكندرية: دار السلام. ص76-79. ص76.
- البخاري، م. (2011). صحيح البخاري، المنصورة: مكتبة فياض للطباعة والنشر والتوزيع. ص716.
- البغوي، ح. (1999). معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق عبد الرزاق المهدي، بيروت: دار إحياء التراث العربي. ص412/1.
- الجرمي، إ. (2001). معجم علوم القرآن، دمشق: دار القلم. ص240.

- ص75/1. ص203/6. ص203/6. ص203/6. ص75/1.
 ص171-170/6. ص187/6. ص187/6.
 عباس، ف. (2010). إتقان البرهان في علوم القرآن، ط2، الأردن:
 دار النفائس للنشر والتوزيع. ص472/1
 عتر، ن. (1993). علوم القرآن الكريم، دمشق: مطبعة الصباح.
 ص122. ص122.
 الغزالي، م. (1993). المستنقى، تحقيق محمد عبد السلام عبد
 الشافي، بيروت: دار الكتب العلمية. ص85. ص85. ص85.
 الفتاني، خ. (2010). مباحث في علوم القرآن الكريم، الأردن: دار
 قنديل للنشر والتوزيع. ص138. ص138. ص141.
 فرحات، أ. (1998). معاني المحكم والمتشابه في القرآن الكريم،
 الأردن: دار عمار.
 القرطبي، م. (2006). الجامع لأحكام القرآن، تحقيق عبد الله
 التركي، بيروت: مؤسسة الرسالة. ص17-16/5.
 القطان، م. (2003). مباحث في علوم القرآن، ط3، مكتبة المعارف
 للنشر والتوزيع. ص220.
 القيعي، م. (1996). الأعلان في علوم القرآن، ط4. ص49.
 ص52. ص52.
 المجالي، م. (2014). الوجيز في علوم الكتاب العزيز، ط7،
 الأردن: جمعية المحافظة على القرآن الكريم. ص173-172.
 ص173.
 مسلم، م. (2010). صحيح مسلم، المنصورة: مكتبة فياض للطباعة
 والنشر والتوزيع. ص965.
 نمازنة، إ. (2003). المحكم والمتشابه في القرآن الكريم، ط1.
 النووي، م. (1999). المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج،
 بيروت: دار المعرفة. ص434/16.

The Mutashabih in the Qur'an and the Knowledge of its Interpretation

*Yahya Jalal**

ABSTRACT

Scholars have different opinions regarding the issue of muhkam and mutashabih in the Qur'an. These opinions have been affected by different considerations. The current study sheds the light on the ways scholars deal with the subject of mutashabih. The study suggests that the general meaning of the term mutashabih, rather than some other specific meanings suggested by scholars, is likely to be the most appropriate one. Additionally, the study shows that the matter of interpreting the mutashabih can be dealt with clearly and easily after determining the suitable definition of mutashabih.

Keywords: Muhkam and Mutashabih (one of the topics of the sciences of the Qur'an), Interpretation.

* Faculty of Shari'a, The University of Jordan. Jordan. Received on 12/05/2015 and Accepted for Publication on 30/07/2015.